إيقاع التضاد في الخطاب النقدي المقري من خلال كتاب "نفح الطيب"

The critical discourse though the book entitled "Nafh al Tib "

وفاء عزيز*
جامعة باتنة 1
مخبر الشعرية
Wafaa.aziz@univ-batna.dz

جمال سعادنة
جامعة باتنة 1
مخبر الشعرية
djamel.saadna@univ-batna.dz

تاريخ الإرسال:12-04-2022 تاريخ القبول: 13-06-2022

ملخص:

المقري بصمة إبداع في عالم الأدب الجزائري خاصة، والمغاربي والعربي عامة؛ انبرى للكتابة بفنية لا محدودة، كان من مخرجاتها كتاب "نفخ الطيب" الذي نقل فيه أخبار الأندلس، وأشهر شخصياتها وزيرها لسان الدين ابن الخطيب، تسللت ضمن مختاراته لمحات نقدية ثاقبة، ارتسمت معالم الشعرية فيها؛ ومن أهم ما كفلها ذلك: التضاد الذي انبثق منه إيقاع عذب، بث في المتلقي ذبذبات الجمال، فانعكست شرطيا بالمتعة والاستحسان عند المتلقي.

الكلمات المفتاحية: مقري؛ نفح الطيب؛ خطاب النقد؛ تضاد؛ إيقاع.

Abstract:

Al-Maqqari is a creative imprint in the Algerian literature in particular, and Maghreb and Arabic in general. He is devoted to writing with unlimited art where he book entitled (Nafh al-Tib) was one of the most important productions in which he reported on the news of Andalusia, and the most famous of its characters, its Minister, Lissan Eddin Ibn Al-Khatib.Its in his anthology, critical insights were provided, where poetic landmarks whre laid out.one of the most important things that ensured it was the antinomy that emerged from it a rythem sweet broadcast the beauty vibrations in the receiver and reflected policely with pleasure and acclaim.

Keywords: El-maqqari; Nafh Al-tib: Critical Discourse; Antinomy; Rhytheme.

* - المؤلف المراسل

مقدمة:

ارتبط أحمد بن محمد المقري التلمساني روحيا ببلاد الأندلس، وخصها من كتاباته بمصنف ضخم ضم ثمانية أجزاء، جمع بين دفتيه كل ما تعلق بها، في مجالات الحياة المتباينة، وما شده إليها هو شخص وزيرها لسان الدين بن الخطيب، الذي شغله بمساحة معتبرة من مؤلفه .

يبدو في ظاهر الأمر أن" نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، وذكر وزيرها لسان الدين ابن الخطيب "كتاب يهتم بنقل الأخبار وخصوصية الشخصيات الأندلسية وجمال طبيعتها الفتان؛ ولكن المتمعن فيه سيجد ملامح نقدية فذة .فما الذي يضيء لنا السبيل لنخترق خصوصية خطابه النقدي؟ وهل هناك ما يشفع بإطلاق هذا المصطلح؟ وما الذي جعله يتميز في ناحيته الشكلية؟، فجعله يتسم بالشعرية؟ وما أثر التضاد في الخطاب النقدي إيقاعيا ودلاليا؟ وكيف ضاهي نثره الشعر موسيقيا من خلال التضاد؟ وكيف له أن يعمق دلالة المعنى من خلال الموسيقى المنبثقة من التقابلات والتوازنات المنبعثة منه؟ كل هذه التساؤلات سنحاول أن ننزع عنها الغشاوة في هذه الدراسة، التي ستنقسم إلى قسمين :

1- خصوصية الخطاب النقدي المقري :وينقسم بدوره إلى :

1.1- من الخبر والمختارات الأدبية إلى النقد .

2.1- خطاب النقد من الانطباع إلى الموضوعية والمنهجية .

2- إيقاع التضاد عند المقري التلمساني :وينقسم إلى جزأين.

1.2- التضاد والإيقاع قديما وحديثا

2.2- إيقاع التضاد في كتاب (نفح الطيب) .

1- خصوصية الخطاب النقدي المقري:

1.1- من الخبر والمختارات الأدبية إلى النقد:

مرت على الأدب العربي سنوات عجاف، لم يكن فيه تحديث أو تجديد أو ابتكار لعلم أو فن أو أي أمر مستحدث، وهي نظرة نقاد القرنين الحادي عشر والثاني عشر، باعتبار أن الأدب كان يقوم على الجمع والتحشية والشرح، لكن هذه الأعمال تحمل في طياتها من التميز ما يؤهلها لأن تكون مركزا للدراسة لما يكتنفها من إعمال عقلي وفطري متميز .

فالمختارات الأدبية والأخبار التي تقوم على النقل، ليست بسيطة كما يبدو، بل إنها تقوم على أسس تتفاضل فيها النصوص حتى تبلغ مرتبة النقل، فليس كل ما هو مطروح في الطريق يمر عبر اختبار دقيق، يدقق أسسه صاحبها بدراية عالية، فتتداخل العوامل الموضوعية والذاتية لتنتقي الخطاب، فيصل إلى المتلقي، بعد مخاض عسير، يتولد منه كتاب يضم بين دفتيه ما لذ وطاب من صنوف الغذاء الروحي والعقلي، ليتغلغل في أعماق المتلقي، ليثير فيه إحساسا متميزا أساسه هذا التميز والتفرد للخطاب مما يرفعه من مستوى الخطابات العادية إلى الشعرية منها .

ويقدم المقري صورة مشرقة عن مختاراته قائلا: "وجمعت من ذلك كلما عالية، لو خاطب بها الداعي صم الجلامد لا نبجس حجرها، وحكما غالية، لو عامل بها الأيام ربح متجرها، وأسجاعا تهتز بها الأعطاف، ومواعظ يعمل بمقتضياتها من حفت به الألطاف، وقوافي موفورة القوادم والخوافي، يثني عليها من سلم من الغباوة والصمم، ويعترف ببراعتها من لا يعتريه اللمم"[1].

فأدب المختارات «بليغ يحرك النفوس ويثير الإعجاب ويوسع آفاق الفكر، ويغري بالتقليد، ويبعث في النفس الثقة، ولا عيب فيه إلا أنه صدر عن رجال لم ينقطعوا إلى الأدب

[1] المقري :نفح الطيب، من غصن الأندلس الرطيب، مج1 ، تح د/إحسان عباس، بيروت، د.ط،198 ،ص 108.

والإنشاء ولم يتخذوه حرفة ومكسبا» [1]، فكتب المختارات من الأهمية بما كانت، رغم ما يظهر عليها من سهولة جمعها في ظاهرها، إلا أنها تتعالى عن ذلك، إلى كونها تحمل آراء نقدية ثقيلة، في مختلف قضايا النقد الأدبي العربي القديم، وأهمها:

أ. قضية اللفظ والمعنى:

استرعت هذه القضية كتابات نقادنا القدامى على مساحات شاسعة، بحيث ذهبوا فيها مذاهب شتى، فمنهم من ينتصر للفظ، ومنهم من يرى أن المزية للمعنى، وهناك من يقف موقفا توفيقيا بينهما، كما وجدنا صاحبنا المقري قد اتخذ موقفا وسطا، فلم ينسق إلى أي منهما، بل اعتبر الألفاظ قوالب المعاني، فيرى في شعر شخصية من تراجمه معلقا: "... وسبك معانيها في قالب قلبه إبريزا، وتم بيان لسانه برود إحسانه بلفظه البديع"[2]، فالمقري فاهم بدراية كبيرة القضية، وشدة ارتباطهما ببعضهما.

والمقري لا نجده ينساق وراء فريق من الفريقين المتنازعين، بل هو ناضج نقديا، ففي استحسانه لكثير من نماذج شعرية أو نثرية تتلخص رؤاه النقدية، فيجمع في شعرية النص بين اللفظ والمعنى تحت مظلة واحدة، وفي ذكره لأخبار الأندلس، ومدح الأماكن والقصور والملوك يورد أبياتا،ويتعجب من جمالها دون إحالة ذلك إلى اللفظ فقط أو المعنى، ويعلق على ذلك قائلا: «...لم أر لهذه القصيدة من نظير، في معناها اليانع النضير، ولفظها العذب النمير، الذي شمر فيه قائلها عند ساعد الإجادة أي تشمير».[3]

فاللفظ والمعنى بتكاملهما وإبداعهما ونضارتهما يشكلان لحمة التفوق عند الشاعر، كما ذهب إلى ذلك صاحب" نفح الطيب ".

---

[1] أبو الحسن علي الحسني الندوي، مختارات من أدب العرب :قسم النثر :مجموعة تمثل الأدب العربي الإسلامي في جميع مظاهره ومناحية الأدبية والتاريخية والتهذيبية من العصر الإسلامي الأول إلى القرن14 هـ، تعليق أبو الفضل عبد الحفيظ البلياوي دار ابن كثير، دمشق، بيروت، ط1،1999 ، ص8.

[2] المقري: نفح الطيب، مج1، ص 76.

[3] المصدر نفسه، ص 494.

ومن الأمثلة الواردة على المنوال السابق قوله: «... وما رأيت ولا سمعت مثل هذه الأبيات في معناها العالية في مبناها [1] ثنائية المبنى" اللفظ "و"المعنى".

وعن الغاية من تأليف كتابه: "هذا الباب، هو المقصود بتأليف هذا الكتاب، وغيره كالتبع له، وها أنا أذكر ما حضرني الآن من بنات أفكار لسان الدين التي هي بالمحاسن متقنعة، وللبدائع منتعلة..." [2]. فالأفكار تلبس وتنتعل بديع الألفاظ لتظهر في أبهى حلة.

ويقول في شعره إنه "مترام إلى هدف الإجادة، خفاجي النزعة، كلف بالمعاني البديعة، والألفاظ الصقيلة، غزير المادة، فمن ذلك ما خاطبني به، وهو من أول ما نظمه..." [3].

من هذه النماذج نعضد ما أطلقناه من حكم حول رأي المقري المبطن في قضية اللفظ والمعنى.

ب. البلاغة والشعر:

ربط المقري في مواضع كثيرة من آرائه النقدية المتناثرة في ثنايا كتابه، عن فضل الشعر وربطه بالبلاغة التي هي عماد التفرد والتميز، فالبلاغة القديمة كانت إكسيرا لنجاح وبراعة ومرور الشعر، ومن ذلك ما نجده في مقدمة كتابه: "... وعن العلماء الأعلام الخائضين بحار الكلام، المستوين من البلاغة على الفلك..."[4] . فالبلاغة أساس التفوق شعرا ونثرا.

فالبلاغة في مواضع متعددة أساس للتفضيل وفضل السبق، ومن ذلك قوله «...ومما يستولي على الخواطر، ويروي رياض الأفكار بسحب بلاغته المواطر، قوله».[5]

---

[1] المقري :المصدر السابق، ص 310.

[2] المصدر نفسه، مج6، ص 164.

[3] المصدر نفسه، مج 7، ص 147.

[4] المصدر نفسه، مج1، ص 13.

[5] المقري :المصدر السابق، ص 311 .

وعن فضل الشعر يقول: «....حسن الشعر والبلاغة ...» [1]، فهو يقرنها بالشعر لما للبلاغة القديمة من منزلة لا تضاهيها منزلة، وفي ترجمته لإحدى شخصياته يقول : «.... وكان الوزير الكريم ...شاعرا مجيدا، وكاتبا بليغا ...» [2]

وعن فضلها كذلك يقول في سبب تفوق الوزير لسان الدين بن الخطيب: "...وتصرفه في فنون البلاغة حالي الولاية والعزل..."[3]. فأثر البلاغة السحري ظاهر في "شعر المستظهر المذكور، وهو من القريض الممدوح صاحبه بالبلاغة المشكور"[4].

فإذا كان الإبداع مربوطا بالبلاغة، فكيف يتأسس ليظهر هو إذن؟

ج. قضية الإبداع الأدبي:

وفي قضية أخرى لا تقل أهمية عن سابقاتها، يتحدث عن الإبداع وتقدم الأدباء وتجديدهم وتفوقهم على بعضهم، ومن ذلك قوله: «وهاتان القصيدتان لابن حمديس - كما في المناهج- مع طولهما تدلان على الإبداع الذي ابتكره، والاختراع الذي ما ولج سمع أحد من الفضلاء إلا شكره»[5]، فالشاعر الأندلسي أبدع في القصيدتين، وجاء بالجديد الذي أبهر المقري، وكل فاضل ناقد غير جاحد، ولا أحد يعترض على هذا الحكم .

وعن نفس الشاعر يشيد المقري بتفوقه في وصف مظاهر الحضارة الأندلسية الفريدة، قائلا: «...فالحسن والإحسان يقادان في أرسان، لعبد الجبار بن حمديس المذكور في المقاصد الحسان، وخصوصا في وصف المباني والبرك، فما أبقى لسواه في ذلك حسن ولا ترك» [6].

---

[1] المصدر نفسه، مج2، ص .129.

[2] المصدر نفسه، مج3، ص232.

[3] المصدر نفسه، ص 70.

[4] المصدر نفسه، ص 489.

[5] المصدر نفسه، مج1 ، ص 496.

[6] المقري :المصدر السابق، مج1، ص 494.

وفي ترجمة الوزير الكاتب أبو عبد الله بن زمرك أحد أبرز تلاميذ لسان الدين بن الخطيب، الذي كان بيت القصيد من مصنف المقري" النفح"، يقول عن شعره: «ومن بدائعه التي عقم عن مثلها قياس قيس، واشتهرت بالإحسان اشتهار الزهد بأويس، ولم يحل مجاريه ومباريه إلا بويح وويس، قوله في إعذار الأمير ولد سلطانه المنوه بمكانه، وهي من الكلام الذي عنيت الإجادة بتذهيبه وتهذيبه، وناسب الحسن بين مديحه ونسيبه» [1]

فتفوق الأدباء يكون انطلاقا من إبداعهم، فعلى أساسه نوازن بينهم، وهذا المجال النقدي ذكره صاحب "النفح" في مواضع متعددة، فيكون الإبداع عنده هو الملكة المحركة والقوة الدافعة لخط القلم للخطاب الجميل، فيقول: "...وبراعة أرهفت سنان قلمه، وبراعة سارت أمراؤها تحت علمه، فكم فتح بفكرة أقفالها، ووسم بذهنه الثاقب أغفالها"[2].

يظل لسان الدين بن الخطيب قدوة المقري، ومثله الأعلى في الإبداع فقد "رفع في ميدان الإجادة لواؤه، وأتيح من أنهار البراعة العذبة إرواؤه،..."[3].

وبدقة عالية يشبه إبداع صاحبه بالأنهار المتدفقة، قائلا: "قد سيقت بأنهار البراعة السلسالة، حدائق حلت بها غانية تلك الرسالة، لتشفي صبها بالزيارة، وتشرق بدنوها دياره"[4].

وفي موضع آخر يقدم وصفا دقيقا لمراحل الكتابة أولها الحالة النفسية (الفرح) لما وصله كتاب "الشاهيني الدمشقي" الذي طلب منه بإلحاح تأليف كتاب عن بلاد الأندلس، فلبى طلبه بعد رفضه لما فيه من مشقة، لكنه شعر بهذه الغبطة التي اعترته، لما كان الأندلس موضوعا له، فزادت من نشاطه وقوت عزيمته ورغبته في الإبداع، فتكللت

[1] المصدر نفسه، مج7، ص 147.

[2] المصدر نفسه، ص 76.

[3] المصدر نفسه، مج1، ص نفسها.

[4] المصدر نفسه، ص 100.

فكرته المتخمرة في ميلاد كتابه الضخم المميز، وهذا ما وافقه المبدعون قديما وحديثا في اعتبار العامل النفسي أهم دافع للإبداع.

وفي ذلك يقول: "...ولما حصل لي الاغتباط، بما دل على صحة حال الارتباط، نشرت بساط الانبساط، وحدث لي قوة النشاط، وانقشعت عني سحائب الكسل وانجابت، وناديت فكرتي فلبت مع ضعفها وأجابت"[1]

يصل المقري إلى أن تلك الحالة النفسية دفعته لأن يقول "ما هو أبدع وأبرع، وفي هذا الباب أنفع وأجمع"[2].

د. قضية الطبع والصنعة:

لا تقل هذه المسألة النقدية عن سابقاتها أهمية، وقد سال حبر النقاد فيها، والمقري قد أشار في أعطاف نقله للأخبار والأشعار والترجمات ومختلف المنقولات لهذه القضية، وكان يفضل الطبع، فترجم لشاعر قائلا: "...كان في وقته شاعر المغرب، ويشهد له بقوة عارضته وسلاسة طبعه، قصائده التي صارت مثالا، وبعدت على قربها منالا..." [3] .

فالشاعر مطبوع، وفي الآن نفسه أشعاره سهلة ممتنعة، يجمع بين الطبع وبعض الصنعة.

وكذا يفضل شاعرا على أساس الطبع، فقال: "وكان مدغليس هذا مشهورا بالانطباع، وكان أهل الأندلس يقولون: ابن قزمان في الزجالين بمنزلة المتنبي في الشعراء، ومدغليس بمنزلة أبي تمام، بالنظر إلى الانطباع والصناعة، فابن قزمان ملتفت إلى المعنى، ومدغليس ملتفت للفظ"[4].

---

[1] المقري :المصدر السابق، ص 107.

[2] المصدر نفسه، ص نفسها.

[3] المصدر نفسه، مج3، ص 237-238.

[4] المقري، المصدر السابق ، ص 385.

وفي تعليله لنقل قصيدتين يظهر فيهما تكلف صاحبهما يقول: "وإنما أثبت هاتين القصيدتين في جملة ما سردته، وإن كان فيهما من التكلف ما لا يخفى لأوجه، أحدهما: أن صاحبهما من الصالحين يسلم له، ويتبرك بكلامه، ومن اعترض على مثله يخشى عليه من تسديد السهام لملامه، الثاني أنهما مدح للنبي صلى الله عليه وسلم من الله تعالى أزكى صلاته وأتم سلامه"[1].

يطغى النقد الأخلاقي في هذا الموضع على قضية الطبع والصنعة، لاعتبارات دينية كانت القصائد ضمن مختاراته لا إلى أي معيار نقدي موضوعي.

هذه بعض الفكر النقدية التي كانت متداولة في الساحة الأدبية .ننتقل الآن إلى مسألة مهمة فيها من الموضوعية والشمولية.

2.1- خطاب النقد من الانطباع إلى الموضوعية والمنهجية :

إن نظرة عميقة في ثنايا الأخبار التي نقلها لنا المقري في نفحة، نجد خلالها فكرة نقدية ساطعة منتشرة بشكل لافت، تتمثل في" المعارضات "التي نالت الحظوة عنده سواء بقصد أم عن غير قصد، فقد عمل على رد الشعر والنثر إلى أصلهما، خاصة النظم، ومن الأمثلة الكثيرة قوله: «وقد تقدم بعض كلامه فيما مر، ومن بديع نثره الذي سلك به نهج ابن الخطيب رحمه الله تعالى قوله من كلام جلبت جملته في أزهار الرياض...»[2] ، فلم يستصغر أمر النسج على منوال الغير، وسلوك الأسلوب، مثلما كان قدامى النقاد يعيبون على صاحبها ذلك، ولم يتحرج في ذلك، بل إن ما كان يزاوج فيه بين أديبين أو أكثر في تلاقيهما في أفكارهما وأساليبهما دليل على ذلك، ومنه قوله: «ومن أحسن ما للمشارقة من التوشيح قول الشهاب العزازي يعارض أحمد ابن حسن الموصلي...»[3]، فلفظة يعارض تعني أنه ينحو نحوه ويسير على طريقته، ولا يبدي كرهه كما كان من سبقه ينعتونه بالسرقة، فهو بهذا يعود إلى فن الموشح عند المشارقة، وعن الموضوع نفسه يقول: « وهذا مطلع موشح بديع له نظم لم

[1] المصدر نفسه، مج4، ص 479.

[2] المصدر نفسه، مج6، ص 149-148.

[3] المقري :المصدر السابق، مج7، ص 89.

يحضرني الآن تمامه، الكوني تركته وجملة من كلام لسان الدين في كتبي بالمغرب جبرها الله تعالى علي وهو معارض للموشح الشهير الذي أوله :

بنفسح الليل تذكى وفاح بين البطاح

كأنه يسقي بمسك وراح» [1].

ويردف ذلك قائلا مباشرة: «وهذا المنحى هو الذي سلكه الجمال ابن نباته إذ قال مادحا الجلال الدين الخطيب رحم الله تعالى الجميع :

ماسح محمر دموعي وساح على الملاح

إلا وفي قلبي المعنى جراح»[2]

فالمقري بحافظته القوية يستطيع تمييز هذا التأثر والتأثير بين الشعراء والكتاب، ولا يبدي حرجا في ذلك، وفي المفاضلة بين الشعراء في المعارضات يقول: « انتهت القصيدة؛ وقد عارض منحاها جماعة فما شقوا لها غبارا، ومن معارضاتها قول بعضهم...»[3] ، وقد عبر عن عدم بلوغ معارضيها لها حيث لم يشقوا لها غبارا .ويقدم لنا أمثلة ومنها معارضة القلقشندي، ويعبر عن هذا المعنى بقوله: «وممن سلك هذا المنهج الشيخ القلقشندي إذ قال...» [4].

وعن الفكرة نفسها يشير إلى المعارضة في المعنى قائلا: «... وعارضه جمع من الشعراء ما بين مخطئ ومحروم، وأغري الناس بحفظها إغراء بني تغلب بقصيدة عمرو بن كلثوم ...»[5]

---

[1] المصدر نفسه، مج7، ص89.

[2] المصدر نفسه، مج7، ص86

[3] المصدر نفسه، مج7، ص326

[4] المقري :المصدر السابق، ص328

[5] المصدر نفسه، مج3 ، ص304-303

هذه أهم اللمح النقدية في كتاب نفح الطيب، وقد كان أسلوبه في ذلك متميزا، اعتمد فيه على حسن البيان، وبديع رصف ومتعة سبك، مما ولد صدي جميلا نبع عن ظواهر مختلفة، أهمها التضاد .

2-إيقاع التضاد عند المقري:

1.2- التضاد والإيقاع قديما وحديثا :

التضاد في اللغة: جاء في القاموس المحيط: «الضد بالكسر والضديد بين المثل، والمخالف، وضاده خالفه، وهما متضادان»[1]، وعند النقاد والبلاغيين نجد عبد القاهر الجرجاني يربطه بمصطلح التطبيق قائلا: «وأما التطبيق فأمره أبين، وكونه معنويا أحلى وأظهر، فهو مقابلة الشيء بضده»[2]، فهناك تماثل بين المعنى اللغوي واصطلاحه فهما يتوافقان في وجود شيء ضد شيء أي عكسه .أما الإيقاع فهو مأخوذ من مصدر (وقع) و«الإيقاع :إيقاع ألحان الغناء وهو أن يوقع الألحان ويبنيها».[3]

وقد ارتبط الإيقاع عند الدارسين المحدثين بالنثر: «وقد يكون الدفاع عن النثر الإيقاعي مثل الدفاع عن الشعر إذا أحسن استخدامه فإنه يدفعنا إلى الوعي بالنص أتم، إنه يبرز السمات ويحكم الربط بين الأجزاء، ينحو نحو التدرج ويوحي بالتناظر، إنه ينظم الكلام والتنظيم فن»[4] .

---

[1] انظر :مجد الدين محمد يعقوب، الفيروز آبادي :القاموس المحيط، مادة (ضدد) قدم له وعلق على حواشيه الشيخ أبو الوفا نصر الهوريني الشافعي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1،2004، ص319.

[2] عبد القاهر الجرجاني :أسرار البلاغة، شرح وتعليق وتحقيق د محمد عبد المنعم خفاجي و د .عبد العزيز شرف، دار الجيل، بيروت، ط1،1991 ، ص36.

[3] الفيروز آبادي :القاموس المحيط، مادة (وقع) ، ص791 .

[4] رنيه ويليك وأستين وآرين :نظرية الأدب، تعريب عادل سلامة، دار المريخ، الرياض، المملكة العربية السعودية، د.ط،1992 ، ص 224.

والإيقاع لا يخص جنسا أدبيا دون غيره، بل هو طاقة شعرية تميز فنونا أدبية متنوعة، وتوفره عناصر متعددة فنية، متضافرة، أهمها التضاد الذي هو عند الأديب» حسن تنظيم المعاني ليكون بينها ترجيع إيقاعي كشأن ترجيع الألفاظ»[1]

فالإيقاع ليس حبيس اللفظ بل إن الإيقاع المنبثق عن التضاد يوفر للنص انتعاشه الشعري.

2.2- إيقاع التضاد في كتاب نفح الطيب :

تولدت عند المقري إيقاعات متنوعة نابعة من التضاد، الذي جعل من آراء المقري مجهورة مسموعة بارزة في هذه التقابلات المعنوية، ومن رؤاه التي لفها التضاد في إيقاع عذب النغم، قوله: «وما رأيت ولا سمعت مثل هذه الأبيات في معناها العالية في مبناها...»[2]، فالترجيع المصدر للإيقاع هنا هو الموسيقى المنبعثة من التوازي المعنوي بين لفظتي المعنى والمبني ما زاد من إيقاعيتها صياغتها على نفس الميزان الصرفي وتوافقهما في حركاتهما وسكناتهما .

وفي موضع آخر نجد المقري في ثنايا ترجمته لشخصية من شخصيات نفحه، وإبداء رأيه في شعره، قائلا: « وله مرثية في عماد الدين زنكي بن آق سنقر الأتابكي، شاب فيها الجد بالهزل، والغالب على شعره الانطباع»[3]، فهو هنا يبدي رأيه في رثائه الذي مزج فيه بين ثنائيتين ضدتين ملتصقتين ببعضيهما هما الجد والهزل، وهذا ما كان دليلا على شعره المطبوع، وقد مثل التضاد في هذه العبارة النقدية نقطة ارتكاز في المعنى، وكذا في النبر عنده

[1] توفيق الزيدي :مفهوم الأدبية في التراث النقدي إلى نهاية ق4هـ، سراس للنشر، تونس، د.ط،1985 ، ص139.

[2] المقري : المصدر السابق، مج1 ، ص310

[3] المقري :المصدر السابق، مج2، ص 143

والتوقف، فاللغة إذا كان الإيقاع فيها » مشتبكا بدوالها جميعا، إذ هو اللا- متوقع الذي يتجاوز القياس، والمتصل - المنقطع، والجديد داخل المكتوب، كما في الحياة» [1].

يربط المقري الإبداع المتأصل في شخص "لسان الدين بن الخطيب" الذي كان أديبا بليغا في كل الحالات والأحوال، وتقلبات الدهر حالي الإدبار والإقبال، وقد عبر عن تلك الحالات بالتضاد "فتصرفه في فنون البلاغة حالي الولاية والعزل"[2]. وقد خلق التضاد بين لفظي "الولاية" و"العزل" المتصلتين تركيبا مكانيا، والمتعاكستين معنى في خلق إيقاع (سمع/فهم) يتغلغل في روح المتلقي بجمال استقبال.

ركز المقري على عناصر الشعري، ومنها القافية التي حلى وصفها، ووضح أثرها، عن طريق التضاد الذي عبر بإيقاعه عن إيقاع القافية: "فقوافيه، ريشت بها قوادم الإتقان وخوافيه"[3]، في سرعة تدفقها وتناسبها، في قوادمها وخوافيها، التي استعيرت كثنائية ضدية، وبهذا تتشكل نواة شعرية تنجذب إليها أقطاب المتلقين بما وجدته من ضالتها الجمالية والمعنوية والإيقاعية.

يظل شغف المقري بلسان الدين قائما في ثنايا منقولاته فهو يراه "إمام هذه الفنون، المحقق لذوي الآمال الظنون، المستخرج من بحار البلاغة درها المكنون، وله اليد الطولي في العلوم على اختلاف أجناسها، والألفاظ الرائقة التي تزيح وحشة الأنفس بإيناسها"[4].

إن هذا التركيب الوارد في الجملة الأخيرة من العبارة :"تزيح وحشة الأنفس بإيناسها" المكونة من (مفعول به: مضاف ومضاف إليه) وشبه الجملة والمضاف إليه، بالإضافة إلى التضاد بين (وحشة) و(إيناس) زادت من قوة الرأي وحدة وقعه موسيقيا، وتعبيرا عن

[1] عبد اللطيف الوراري :نقد الإيقاع في مفهوم الإيقاع وتعبيراته الجمالية واليات تلقيه عند العرب، دار أبي رقراق، الرباط، المغرب، ط1، 2011 ، ص 318.

[2] المقري، المصدر السابق، مج1، ص 70.

[3] المصدر نفسه، ص 77.

[4] المقري: المصدر السابق، ص 109.

النفسية، فإيقاعه زاده السجع رونقا، فكان لانسجام الألفاظ، وتناغمها توليد لجرس إيقاعي ليس بخاف على المتلقي الذي يشده إليه، ويقنعه باختياره الصائب.

يذهب صاحب "النفح" إلى إبراز أثر التضاد في إنتاج كتابه، ويقدم اللوم لمن لا يوفيه حقه، دون تمعن إلى درر بلاغته، "فدونك أيها الناظر في هذا الكتاب المتجافي عن مذهب النقد والعتاب، كلمات سوانح، اختلست مع اشتغال الجوانح، وتضاد الأمور الموانع والموانح، وألفاظ بوارح اقتنصت بين إشغال الجوارح..." [1].

فالتقابل المعنوي بين الأمور "الموانع" و"الموانح" فالمنع عكس المنح والعطاء، فالحياة تقوم على التناقضات، وهذا ما يمنح للخطابات قوتها، وهذا التضاد أضفى نغمة زاد من إسماعها الجناس بين اللفظتين، فزاد الطلاوة حلاوة في إيقاع خاص، وارتباط علائقي، ووشائج عميقة بين الرأي النقدي والمتلقي.

يدافع المقري عن أدب المغاربة الذي كانت نظرة النقص موجهة له، موظفا بذلك مقابلة معنوية بين لفظتي "النباهة" وضدها "الوهم" وفي بيان منهجه، وهو نهج "متسع، ولم نطل السير في هذه المهامه، وإنما ذكرنا بعض كلام المغاربة ليتنبه بهم منتقصهم من سنة أوهامه..." [2]، وهو تضاد غير مباشر في اللفظ، بل في المعنى، وقد ساهم ذلك في ترك بصمة موسيقية مؤثرة على ذهن المتلقي وجذبه لاستقبال وقبول الرأي النقدي الصادر، مما يكسبه فعالية وديناميكية سريعة.

لا يبدي المقري آراءه في فنون الشعر فقط، بل ركز على فن نثري مهم آنذاك هو "فن الرسالة" في كثير من منقولاته، وعن أثرها فقد "شفت النفس من آلامها، وأحيت ميت الهوى مذ حيت بعذب كلامها"[3]، فببراعة لامتناهية عن طريق التضاد الخفي بين الفعل "شفت" والمصدر "آلامها" ، وكذا بين الفعل "أحيت" والمصدر "الهوى" استطاع أن ينقل لنا جمال الرسالة، وأسهم التضاد في تعميق الدلالة، مصاحبا إياه إيقاعا١ متميز، وهذا ما

[1] المصدر نفسه، ص 112.

[2] المصدر نفسه، ص 499.

[3] المقري: المصدر السابق، ص 100.

يظهر ثمره واضحا في إمتاع المتلقي الذي يحس بلذة سماعية ناتجة من تآلف إيقاع الدلالة والموسيقى ليوصل لنا رأيه النقدي في أبهى حلة.

يعجب صاحب" نفح الطيب "بكتاب الأديب من تراجمه، معبرا عن ذلك بقوله: «... وينادي بإحراز خصل سحر البيان من الثريا إلى الثرى، ولم أر كتابا قبل تكون محاسنه متداخلة مترادفة، ولطائفه وبدائعه متضاعفة متراصفة، وذلك سرد من غرر درره الأحاسن...»[1]

انطلق ناقدنا من سلسلة متوازيات دلالية، بين(الثرى والثريا) و(متداخلة مترادفة) و(متضاعفة-متراصفة)، والتضاد هنا ليس مباشرا، بل في علاقته الاستلزامية ف" :الثرى "في أقصى انخفاض مقابل أقصى ارتفاع في" الثريا "و "التداخل "أي التعاكس مقابل "الترادف"، و" متضاعفة "أي كثيرة وغير منتظمة مقابل متراصفة أي مرتبة .

وقد ولدت هذه التقابلات المعنوية السياقية موسيقى عذبة تحمل معها« صراعات نفسية ووجدانية لا تعمل في ذهن المبدع فقط، وإنما تثير وعي القارئ وتحرك إدراكه» [2].

فالتضاد ليس ضروريا أن يكون تقابلا معجميا وفق ما هو متعارف عليه، بل يجب أن يكون حده واسعا بحيث يخلق لنا مساحات للإبداع والبيان والإيقاع، فالأهم أن تكون هناك علاقات تؤدي إلى إنشاء التضاد وفق ما يملية السياق .

والتضاد يجمع حقلين دلاليين متعاكسين، ليتكاملا بمقابلتهما، وتكمل الدائرة الدلالية ويتلازم وفق ذلك خلق إيقاع عذب الموسيقى، فيتماشي اللفظ والمعنى والإيقاع في التضاد، في تلاؤم وانسجام وحلاوة تأسر المتلقي، وتبعث فيه إحساسا حادا باللذة .

[1] المصدر نفسه، مج2، ص 461 .

[2] موسى ربابعة :جماليات الأسلوب والتلقي دراسات تطبيقية، دار جرير للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط1، 2008

وظف التضاد بشكل لافت عند المقري، ومنه: «وكان مدغليس هذا مشهورا بالانطباع والصنعة في الأزجال...»[1]، وقد ركز المقري هنا على الزجل وفضل الجمع بين الطبع والصنعة فيه، وهذا ما مثله الزجال" مدغليس " وقد أجمع بين الثنائية الضدية ليوضح رأيه النقدي، وهذا التضاد نبع عنه إيقاع من توالي الألفاظ :

إن الانطباع بدل الطبع الصنعة +الأزجال بدل الزجل.

فهذا النظم المتراصف والتقابل بين" الانطباع والصنعة "مكن للرأي النقدي إثارة ومتعة أساسها هذا الانبهار النابع من جمع المتضادين مبنى وانصهارهما معنى وإيقاعها تركيبا .

يترجم المقري لشخصيته، واضعا أعمالها الأدبية في ميزانه النقدي، وفي إحداها يقول: «...وكان وهو ابن سبع عشرة سنة ينظم النظم الفائق، وينثر النثر الرائق...»[2]، أقام رأيه النقدي على الثنائية الضدية(ينظم النظم + ينثر النثر) .

فقد قابل اثنين باثنين، ومن هذه المقابلة نبع إيقاع يتغلغل في الفكر قبل الأذن، هذا ما يسمح بإنتاج تفاعل جمالي، أساسه الذبذبات المتبادلة بين العقل والوجدان من جهة والأذن من جهة أخرى، فينبعث شعور يخترق مواطن الإعجاب عند المتلقي .

ليس للتضاد حدود بلاغية بديعية، بل هو يتعدى ذلك، إنه آلية مميزة من آليات الشعرية، لا سيما ما ارتبط فيها بما يبثه من موسيقى تريح النفس بسماعها، فالتقابل بتباعد ثنائيته يزيد في إيقاعيته، وما يعزز هذا الرأي ما ورد في خطاب المقري النقدي: «ولهذا الكاتب شعر يسقط فيه سقوط الأغبياء، وقد ينتبه فيه تنبه الأذكياء[3]»، فالمقابلة الضدية الثلاثية قد قرعت على أسماعنا بإيقاع متميز رائق، تناغمت فيه الأصوات، وانتظمت فيه الكلمات، وتوضحت فيه الدلالات، فراقت فيه الإيقاعات وأثرت في المتلقي، الذي يحدث فيه هذا التناغم إثراء في الرأي النقدي وتجميلا له .

[1] المقري: المصدر السابق، مج3، ص385

[2] المصدر نفسه، ص 429

[3] المقري :المصدر السابق، ص 561

وقد تنبه القدماء النقاد إلى ما للإيقاع من أثر فركز عليه جهابذتهم وفي وقت مبكر مثل ابن طباطبا الذي يرى أن الكلام الذي جاء« سالما من جور التأليف وموزونا بميزان الصواب لفظا ومعني وتركيبا اتسعت طرقه ولطفت موالجه، فقبله الفهم، وارتاح له، وأنس به... »[1]

ونجد خطاب المقري النقدي التي تظهر ظلاله في ثنايا ترجماته وأخباره قد التزم بقواعد الكتابة الرائقة التي شقها سابقوه؛ والتضاد سطع في شعرية نظمه وأثره الإيقاعي .

وواصل المحدثون اهتمامهم بالإيقاع فالناقد عبد اللطيف الوراري يرى أن النثر لا يختلف عن الشعر كثيرا فلا مانع من ذلك فلا« النثر يحول بينه وبين أن يحوز إيقاعا آخر خاصا به خارج النظم ...العلاقة بين الشعري والنثري، وطبيعة التحول الجمالي التي تطال خاصة في انتقاله من الشعر ككلام منظوم إلى النثر كلام غير موزون»[2] .فإيقاع التضاد يمنح النثر ميزة التفوق الشعري للنثر على الشعر، الذي يربطه الوزن والقافية، فيما ينطلق الأديب للتعبير بطلاقة، ويبدي رأيه إزاء موضوعه، مخترقا بذلك أفق توقع القارئ بهذا الجمال الموسيقي، والإيقاع الشعري الجمالي.

الخاتمة :

من خلال تتبعنا لخطاب المقري النقدي، وأثر إيقاع التضاد فيه توصلنا إلى النتائج الآتية :

- كتاب نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب مصنف ضخم في الأخبار، والتراجم، توارت وراءها رؤى نقدية هامة .

[1] محمد بن أحمد بن طباطبا العلوي :عيار الشعر، تح وتعليق محمد زغلول سلام، منشأة المعارف بالإسكندرية جلال حزي وشركاؤه، د.ط، د.ت، ص52

[2] عبد اللطيف الوراري :نقد الإيقاع :في مفهوم الإيقاع وتعبيراته الجمالية وآليات تلقيه عند العرب، ص 239

- قضية اللفظ والمعنى والطبع والصنعة وفي اهتمامه بالبلاغة التي كانت أساس الحسن وأبهته في النقد القديم، هذا ما يدل على تشكل خطاب نقدي في مصنفه .

- قضية المعارضات أو ما كان يعرف قديما بالسرقات الأدبية من أهم المسائل التي شفعت للخطاب النقدي المقري بالنضج، وتكامل الرؤية عنده، وفق منهج سليم لا ينساق فيه وراء ما ذهب إليه أهل عصره ولا سابقوه .

- التضاد آلية مهمة تحقق خلاله الجمال والشعرية المنشودة في نفح الطيب - . التضاد لم يكن مجرد محسن معنوي، بل ساهم في رفع أسهم إيقاع الشعرية في خطاب النقد المقري.

- يجمع التضاد حقلين دلاليين متعاكسين، يتكاملان بمقابلتهما ليشكلا الدائرة الدلالية التي يصحبها إيقاع موسيقي عذب.

- عزز التضاد رؤى المقري النقدية دلالة وإيقاعا .

- اهتم المقري بالتضاد لكونه آلية مهمة من آليات الشعرية التي تحقق الإمتاع للمتلقي فيكون فيه النثر أقرب ما يكون إلى الشعر .

المراجع

1. توفيق الزيدي(**1985** ، مفهوم الأدبية في التراث النقدي إلى نهاية ق**4**هـ، د.ط، تونس، سراس للنشر.

2. أبو الحسن علي الحسني الندوي(**1999**) ، مختارات من أدب العرب :قسم النثر : مجموعة تمثل الأدب العربي الإسلامي في جميع مظاهره ومناحيه الأدبية والتاريخية

والتهذيبية من العصر الإسلامي الأول إلى القرن 14 هـ تعليق أبو الفضل عبد الحفيظ البلياوي، ط1، دمشق، بيروت، دار ابن كثير .

3. رنيه وليك وأوستن وارن(1992) ، نظرية الأدب، تعريب د .عادل سلامة، الرياض، المملكة العربية السعودية، دار المريخ للنشر

4. عبد القاهر الجرجاني(1991) ، أسرار البلاغة، شرح وتعليق وتحقيق د .محمد عبد المنعم خفاجي ود .عبد العزيز شرف، ط1، بيروت، لبنان، دار الجيل.

5. عبد اللطيف الوراري :(2011)نقد الإيقاع :في مفهوم الإيقاع وتعبيراته الجمالية وآليات تلقيه عند العرب، ط1، الرباط، المغرب، دار أبي رقراق

6. الفيروز أبادي(2004) ، القاموس المحيط، مادة (ضدد)، مادة(وقع)، قدم له وعلق على حواشيه الشيخ أبو الوفا نصر الهوريني الشافعي، ط1، بيروت، لبنان، دار الكتب العلمية .

7. محمد بن أحمد بن طباطبا العلوي) دت(، عيار الشعر، تح وتعليق محمد زغلول سلام، دط، الإسكندرية، مصر، منشأة المعارف بالإسكندرية.

8. المقري(1988) ، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، مج1 ، مج2، مج3 ، مج6، مج7، دط، بيروت، لبنان، دار صادر.

9. موسى ربابعة(2008) ، جماليات الأسلوب والتلقي دراسات تطبيقية، ط1، عمان، الأردن، دار جرير للنشر والتوزيع .